

الانسان والفكرة

بقلم أبو المعالي أبو النجا



في حاجة الى هيئة الامم ؟ ولكن هيئة الامم التي تعنى بصحة الافراد وسلامتهم ، كانت تؤكد من جديد ان صحة وحيد في خطر حقيقي ولم تابه دائرة الاهل والاصدقاء ..! انحصرت آمالهم في امل صغير متواضع .. أن يعود وحيد الى وطنه .. مجرد أن يعود أن يروه .. أن يسمعه .. أن يقولوا له بضع كلمات !!

ففي عيون الجالسين حول التليفون كانت ثمة كلمات حبيسة ، ودموع حبيسة ، وخلف الكلمات والدموع تطل صورة وحيد الغائب هناك في باريس يصارع وحده المرض والموت !! كل واحد هنا له مع وحيد قصة فريدة .. اختلفت البدايات ، ولكن اللحظة التي تجتمعهم الان ، - وبعضهم يرى البعض الاخر لأول مرة - هذه اللحظة تزيل الحجب بينهم ، وتوحد المعنى والشعور الذي ينبض في قلوبهم وفي عيونهم ..!

أصبح السؤال الذي يهربون به من كل الاسئلة : متى يعود ?? واصبحت الاجابة التي تحدد احيانا اليوم والساعة تحاول ان تغطي على مشاعر كثيرة ، اخطرها - اذا لم يكن مخطئا - شعور دفين بالذنب ..!

وكان لهذا الشعور تاريخ قديم لدى عدد كبير من هؤلاء الاصدقاء! فمنذ اكثر من اربعة اعوام ودع وحيد اصدقاءه وسافر الى باريس ليستكمل دراسته باعداد رسالة لنيل درجة الدكتوراه في النقد المسرحي . وقبل ذلك بخمسة عشر عاما كان وحيد قد ودع اصدقاءه في قرية منية سموند ليستكمل دراسته في مدارس القاهرة ثم في الجامعة !

وهكذا كانت حياته سفرا دائما من اجل ان يستكمل ادوات المعرفة وقبل ان يتصدى لاداء المهمة التي يريد ان يهبها كل حياته! وحين التقينا به ، وتصادقنا معه في اوائل الخمسينيات .. كنا مثله مجموعة من التلاميذ القادمين من الارياف ، والحالمين بكل ما يستطيع انشاء العشرين ان يعلموا به !!

ومعا كنا نفتش في المذاهب والنظم والفلسفات عن حلول لمشكلاتنا كافراد وجماعات ..!

ولكنه لم يكن مثلنا يعتقد في بساطة ان الحلول تكمن هناك على قيدخطوات او ذراع في تطبيق هذا النظام او ذلك !!

كان على ولعه الشديد بالقراءة يملك حسا نافذا بما في الحياة من تعقيد يند احيانا عن كل محاولة بشرية لتنظيمه وتنظيره وعلاجه وكان شعوره بعناصر العبث والنفاهة والقسوة في الحياة قويا الى ابعد الحدود! وكان حدثه عنها حديث العارف بمواطنها في الطبيعة والمجتمع والفرد على السواء ، وكان من الممكن ان يسلمه ذلك الشعور القوي المبكر بهذا كله الى اللامبالاة ، الى السقوط في هوة الفردية

كانت البرقية التي وصلت من باريس تقول عن « وحيد النقاش » كلمات قليلة لكن قاطعة (حالته الصحية خطيرة ، ولا امل هناك) وحول هذه البرقية تجمع اهل وحيد وعدد من اصدقائه وكانهم يحاولون ان يفهموا من هذه البرقية شيئا اخر غير ما تقوله ! كانوا ذاهلين اكثر منهم قادرين على فهم اي شيء او عمل اي شيء ! وظلت كلمات البرقية حتى الصباح كما هي ، لم تكن بمقدور احد ان يغير فيها حرفا واحدا كأنها كلمات القدر نفسه ! في الصباح تجمعوا حول التليفون يطلبون من باريس ان توضح الموقف ، ان تقول لهم شيئا مختلفا ، وفي الصباح كانت باريس ترد معنى البرقية بالفاظ مختلفة !

وراحت دائرة الاهل والاصدقاء التي تلفت حول تليفون الساعة العاشرة تنتظر ، وتنمو ، وتتغير ، وتتلطف ، وتحاول عبثا ان تجد في مكالمات باريس شيئا اخر غير ما تصر على قوله !

وراح كل واحد في الدائرة يحاول ان ينقذ « وحيد النقاش » بطريقته الخاصة ، راح كل واحد في الدائرة يسترجع قصة او اكثر لمرضى قال عنه الطبيب مثل هذه الكلمات التي يطلقها الاطباء في بساطة كما يطلقون تهيدة ، ثم خيب المريض ظنون اطبائه ، وتحققت له معجزة الشفاء ، ولاول مرة يستريح مثل هذا العدد من المثقفين المصريين الى الحديث عن المعجزات ، والى ان كلمة العلم في امور الجسم البشري وفي لغز الحياة والموت ، لم تعد بعد قاطعة او غير قابلة للخطأ !!

تركز الامل في ثفرة واحدة صغيرة اسمها الخطأ .. خطأ الحساب او التقدير تركز في المجهول ، في ان العلم لم يحط بعد بكل اسرار الجسم البشري ولم يحل كل الغازه !!

وسافرت شقيقة وحيد الى باريس لتكون الى جواره ، وهو يواجه محنة المرض القاسي ، واصبحت هي التي تتكلم من هناك .. ولكنها ايضا كانت تردد كلمات البرقية .. انضمت الى باريس ، واصبحت تتكلم لفة الاطباء هناك !! الاطباء الذين يقولون ان المسألة مسألة وقت .. ولكن دائرة الاهل والاصدقاء راحوا يركزون املهم من جديد في الوقت نفسه .. في مرور الوقت !!

ما معنى ان يمر كل هذا الوقت دون ان ينفذ المقدر !! ها هم الاطباء يخطئون خطأ صغيرا في حساب الوقت فلماذا لا يخطئون خطأهم الاكبر وينجو وحيد !!؟

واقفا وحيد من غيبوبته .. بدأ يتكلم ويداعب مجموعة الاطباء العالميين الذين اغادوا فحصه وتقدير حالته قائلا : هل اصبحت حالتي

البغيضة ، الى ان تصبح قضيتها الاولى والاخيرة هي انقاذ ذاته وحياته في عالم لا امان فيه ولا ضمان لشيء او احد !!
ولكن القريب ان هذا الشعور القوي المبكر اسلمه في فترة مبكرة الى النقيض تماما .. الى الشعور القوي بالمسئولية والجدية ..!
ولا اظن ان هذا الزواج كان فقط ثمرة لتأثره بالثقافة الوجودية وقد كان اقرب ابناء جيله اليها .. ولكنه كان ثمرة لمجموعة عوامل في تربيته ، نزعته من شعوره بالجدية والمسئولية كل احساس بالمرارة يغالج كل من يأخذ الحياة بجد كامل ..! ووسمت ذلك الشعور القوي بنوع من الرضا الذي قد تجده لدى المتصوفين والمتسامحين ، والناظرين في فهم وعطف عميقين الى ضعف الناس وقسوتهم على حد سواء !

وفي الوقت الذي كان عدد كبير من ابناء جيلنا يطلبون النجدة من اله جديد اسمه الاشتراكية ، ويرون في اعادة تنظيم المجتمع على اساس اشتراكي حلا لمشكلات الفرد والجماعة ، كان هو في هذه الفترة المبكرة من حياته وحياتنا يرى ان مأساة الحياة الانسانية اعرق جلورا من بركات الالهة القدامى والحديثين ولكنه لم يكن ليرفض اي منحة حقيقية من اي اله قديم او جديد ، او حتى من البشر !!
فقط كان يرفض الاعتقاد الساذج بان الفردوس الارضي يقع هناك على بعد اعوام او كيلومترات !

كان يثق بان لا بد ان يتحقق للانسان نوع من الفردوس ، لكنها لن تصل اليه الا اذا كانت ثقنتنا في الفرد لا تقل عن ثقنتنا في الجماعة ، والا اذا كانت عيوننا مفتوحة ، وعقولنا متبركة لما في الطريق من اخطار ومزالق هي جزء من حياتنا البالغة التعقيد !

وكاد شعاره ان يكون : علينا ان نواجه الحياة بقدر من الفكاهة يعيننا على احتمال ما في الواقع من عبث وتفاهة ، وبقدر من الجدية يعيننا على صنع الحياة التي نحب ، والتي تجعلنا نحترم انفسنا))

وحين بدأنا نخطو خطواتنا الاولى في طريق الحياة العملية ، حين بدأنا نواجه ذلك التعقيد البالغ بين الوسائل والغايات ، بين مهمة المحافظة على الوجود ، والمحافظة على معنى الوجود ، حين بدأ الكثيرون منا يتحدثون في اسباب عن ضرورة تأمين الوجود اولا لان في ضياع هذا الوجود ضياعا لمعناه ولمعنى كل شيء ، كان هو وحيد النقاش يتحدث بسلوكه عن وحدة السلوك ، عن ان الوجود لا ينفصل عن معناه ، عن ان المشكلة ليست هي ان توجد اولا ثم تبدأ في الدفاع عن معنى وجودك بل هي كيف توجد ، ولو ادى الامر الى التضحية بالوجود ذاته !!

حين بدأ الكثيرون يتحدثون في فصاحة عن انه في مثل ظروف مجتمعاتنا لا تستطيع ان تتخذ بعض الصواب الا من خلال بعض الخطأ ، وان الكلام غير العمل ، كان هو وحيد النقاش بعمله الصابر والثابر لا ينقد الا ما يراه صوابا ، ولا يمد يده الا لما هو خير وجميل وطيب .

وكانت تلك مفارقة مريرة ، ان يتحول عدد من اصحاب النظريات الشاملة والكاملة الى الحديث عن انصاف الحلول ، وما في الواقع من تعقيد ، وان يصر اول من تحدث عن هذا التعقيد ، على ما يشبه مواقف القديسين والابطال القدامى ! .

وحين اصر وحيد على المضي في طريقه غير الماهول .. وعلى ان يدخل من الباب الضيق ، اصبحنا نتحدث عنه اكثر مما نتحدث معه ! وكان حديثنا يبدأ بالخوف عليه ، ولكنه يشي بالخوف على نفوسنا !
« هذا المجنون سوف يفقد كل شيء اذا ظل مصرا على ان ينقد كل شيء » .
وحين سافر الى باريس ، لم يكن يملك الا ارادة محارب ، وجسد محارب مثخن بالجراح ، ولم يسافر وحده ، بل حمل احلامه ، وما تبقى من احلامنا الطيبة ، حمل بقايا آمالنا التي تخلينا عنها في زحمة صراع الحياة اليومية والعملية !

وبدا وكان هناك رهانا غير معلن بيننا وبينه ! وانه مصر على أن يكسب الرهان !!

ولانه كان يحارب بنفس الاسلوب فقد كان من الضروري ان يعاني هناك كما كان يعاني هنا من خصوم هذا الاسلوب ، وهم كثيرون في كل الدنيا ، وفي كل الانظمة ! .

وهناك كان يدفع الثمن ، ولكنه كان يدفعه هذه المرة من حياته ، من اداة حياته ، من جسده المثخن بالجراح !

ولكنه وحيد النقاش الذي لم يعترف يوما باولا وثانيا وثالثا ..! لم يتردد في دفع اي ثمن ، ومهما يكن غالبا !

وكانت كتاباته من هناك كما كانت كتاباته هنا تؤكد ان وحيدا لم يتغير موقفه البطولي والانساني ، جسده وحده هو الذي كان يتغير

يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، دون ان يتوقف او يوقفه احد ليقول له الى أين ؟ وما الذي تفعله بنفسك او تفعله بك الحياة !!

وكاد ان يحقق المعجزة ، وان يكسب الرهان ، فلم يبق سوى شهور قليلة يعود بعدها وحيد وقد انجز وعده ..!

ولكن الحياة التي كان هو اول من امط اللثام لجيلنا عما فيها من عناصر القسوة والعبث والتفاهة لم تغفر له ما فعل !

كانت له بالرصاد ، وكانت بالرصاد كذلك الامل الصغير الذي تجمعت حوله دائرة الاهل والاصدقاء حول التليفون في حجرة بمنزل رجاء النقاش !

وفي اليوم الذي كنا ننتظر فيه عودته .. عادت شقيقته وحدها ، فقد عاوده الاعماء من جديد ، وقبل ان يحمل شقيقه رجاء حقيبته ويمضي ليكون بجواره ، حمل الينا التلفاز نبا وفاته !

ووضع هذا التلفاز بكلماته القليلة حدا لانتظار الاصدقاء والاهل ولايمانهم بالمعجزات ، وللقصص التي كانوا يصررون على حكايتها كل ليلة عن جهل الاطباء وقدرات الجسم البشري اللامحدودة ، ولفز الحياة والموت !

ولكنه عجز عن ان يضع حدا لشعورنا الدفين بالذنب !
فالتلفاز لم ينع وحيد النقاش وحده ، ولم ينع احلامه الكبيرة وحدها ، ولم ينع اسلوبا فريدا في الحياة وفي معنى الكرامة والبطولة والشرف والانسانية ، ولكنه نعى لنا جميعا بقايا احلامنا التي تركناها بين يديه حين امتدت ايدينا لفتات الحياة !!

من الذي خسر الرهان ومن الذي كسب ؟ ومن الذي يملك القدرة على الاجابة على هذا السؤال ولا أقول حق الاجابة ؟!

ومضى اصدقاء وحيد الى استقباله ، ولم يشهد جامع عمر مكرم الذي تعود ان يشهد نهايات الكبار جميعا في الحياة وفي الموت لم يشهد مثل هذا الموكب العاطفي البليغ !

ولم يكونوا جميعا يعرفونه ، ولكن عبر تجربته العظيمة الذي كنا نظنه بعض اسرارنا كان يملأ الافاق والصدور والعيون الظما للعيسر الطيب ! .

وتحدر وحيد دموعه في عين مصر ، شهيدا في وقت تحتاج فيه بلاده الى الآف الشهداء لكي تعيش !

وفي قرية منية سمند ، كانت دورة الشهاب الساطع نكتمل ، وقبل ان تحقق كل الكمال الذي كانت ترجوه !

وفي قرية منية سمند وقف عدد من اهله واصدقائه يودعون اعز احلام شبابهم في مكان من ارض مصر التي وهبته الحياة فوهبها اعظم ما في الحياة !

فيا اصدقاء وحيد ، وقبل ان تجف الدموع ، ان احلامه واحلامكم تحوم في الافاق تبحث عن ماوى ، واذا لم نفتح لها قلوبنا وعقولنا ، فلن يكون وحيد وحده هو الذي قضى ، ولن ينقضي ابدا شعورنا بالذنب وليرحمنا الله !!

ابو المعاطي ابو النجا

القاهرة